من صباه حتى فقد أمه وحتى ذاق مرارة اليُتم وعرف قسوة العَلَّات، ثم لم يكد يعقل حتى رأى نفسه يختلف إلى حذاء يعمل عنده في صناعة الأحذية، وكان يرى أبناء عمه يختلفون إلى الكُتَّاب ثم إلى المدارس يتخذون هذه الأزياء التي لا تخلو من ظُرف، وعليهم هذه الشارة التي لا تخلو من جمال، وفيهم شيء من أنفة وكبرياء يغريهم بهما ما كانوا يحسون في أنفسهم من امتياز، فأنكر الفتى نفسه في منزله بين هاتين العلتين، وأنكر نفسه عند معلمه ذلك الحذاء، صانعًا للأحذية مُمارسًا أقدام الرجال، وأقسم فيما بينه وبين نفسه ليهجرنَّ دار أبيه متى استطاع، وليهجرن عمل الحذاء متى وجد إلى ذلك سبيلًا. وكان أخوه علي يشاركه في هذا كله: يشاركه في الضيق بحياة البيت، وفي الضيق بهذه الصناعة التي يكرهه عليها أبوه إكراهًا، وكان الفتيان بعد ذلك يختلفان اختلافًا شديدًا: فلسالم حظ حسن من ذكاء، ولعليٍّ حظ عظيم من الغباء والغفلة، ومهما يكن من شيء فقد اتفق الشابان على هذا السخط، واشتركا في هذا الضيق، ورأى كل واحد منهما نفسه بائسًا مضطهدًا، واجتهد كل واحد منهما في أن يلتمس لنفسه مخرجًا من هذا البؤس وهذا الاضطهاد.

فأما سالم فقد أحسن صناعته، ثم انصرف عنها، ولَمَّا همَّ أبوه أن يلومه في ذلك أجابه الفتى في حزم قائلًا: إنَّكَ إنما علمتني هذه الصناعة لأعيش وأكفيك مئونتي، فسأعيش وسأكفيك مئونتي. ثم أخذ يضطرب في حياته كما يضطرب الشاب الذكي الذي يحسن القراءة والكتابة، ولم يُحرم يدًا صناعًا وعقلًا يحسن التصرف في الأمور، فجعل يتنقل من عمل إلى عمل يكسب القليل مرة والكثير مرة أخرى، ويدفع إلى أبيه الجنيه أو الجنيهات من حين إلى حين، وقد اطَّرح زِي أترابه، واتخذ زي بني عمه، فأصبح أفنديًّا مطربشًا، ولكنه كان يشعر دائمًا بالنقص إذا لقي بني عمه؛ لأنه لا يرطن كما يرطنون، ولا يسعى إلى الشهادات كما يسعون إليها، وكان يشعر في الوقت نفسه بالتفوق على بني عمه؛ لأن يده لم تصفر من المال قط، فكان في جيبه من الذهب والفضة ما لم يكن في جيوبهم، وكان على ذلك خرَّاجًا ولَّاجًا لا يضيق بشيء ولا يُعييه شيء، ولا يعرض له حرج إلا خرج منه، ولا تلم به مشكلة إلا انسلَّ منها كما تنسل الشعرة من العجين، وكان بعد هذا كله طلق الوجه، باسم الثغر، فصيح اللسان، عذب الدعابة، منشرح الصدر، لا يعرف الهم إلى قلبه سبيلًا، وما دام قد اجترأ على أبيه مرة فترك صناعة الأحذية واستقلَّ بأمره، فما يمنعه أن يخرج على أبيه مرة أخرى؟! وقد فعل؛ فقال لأبيه ذات يوم: لا أسمعك تحدثني عن جلنار، فإني لم أخطبها ولم يخطر لي قط أن أتخذها لي زوجًا. قال سليم: